تطور الملابس

لحضرة صاحب العزة محمود حسيب بك

مدير البحيرة

إن بحث موضوع تطور الملابس لأهم من أن يظهر لأول وهلة إذ أن الملبس يختلف عما يعبر عنه بالزى، فالأول مقصود به كساء الجسم بأية وسيلة بصرف النظر عن تأثير شكله على الغير، بينما الثانى مقصود به إشباع غريزة حب الظهور بسبب ما تميل اليه النفس البشرية من العجب والخيلاء وحب الظهور بمظهر جذاب ، وهذه التفرقة لا تستند إلى أساس علمى متين إلا أنها ظاهرة طبيعية محققة . وليست المودة التى هى استحداث الزى وابتكاره من طبيعة أخلاق الانسان وفطرته إنما هى مظهر سببه اختلاف الأفكار فى سائر الأقوام، فالمرأة المسلمة تستر كل جسمها ما عدا الوجه والكفين بينما المرأة السومطرية تخفى جسمها إلى الركبة، والصينية تعنى بضغط قدميها، وفى أواسط آسيا يظهرون السرة وفى تاهيتى وتنجانيقا يطرحون الملابس ظهريا ويتزينون بالوشم وعند الكاريبيين يعنون بحزام الوسط بينما فى الاسكا يهتمون بصمامات الفم المعدنية . ولبيان مدى تباين الأفكار بشأن الزى وضع "باسكال" فرضا قال فيه : " لو أن أحد شيوخ فرقة الأندلسية من المسلمين القدماء بعث الآن وشاهد مناكب بناتنا ونسائنا العارية فى حلقات الرقص لعرته الدهشة لسفورهن ولأشفق على هذا الجيل من غضب الله" وقال فى نظريته عن الملابس "إن هناك تباينا حتى بين الأقوام التى تعيش فى عصر واحد، فاليابانى مثلا لا يرى غضاضة من استحمام الجنسين معا مجردين من الملابس بينما الانكليزى يحتم حتى فى الحمامات غير المختلطة ارتداء ثوب الاستحمام المتعارف عليه، بل إن كثيرا منهم يشمئز من العرى الذى يلجأ اليه الفنانون والممثلون فى عملهم ولوحاتهم" ويستطرد باسكال فى نظريته فيقول : " إن الاختلاف حتى فى نفس القوم فى الجيل الواحد وفى الزمان والمكان فى البلد الواحد، فالمرأة الأوربية مثلا يجوز لها أن تكشف بعض أجزاء جسمها فى المراقص ودور المسارح "السواريه" بينما لا تفعل ذلك فى الطريق أو أثناء النهار وأيضا لا تستبيح لنفسها أن تبدو فى المدينة بثوب الحمام الذى ترتديه على الشاطئ .

أما المودة أو استحداث الزى فليست من المسائل العويصة العسيرة الفهم . وللكشف عن أصولها يجب أن نرجع إلى القبائل التى ما زالت على الفطرة فى أفريقيا وأمريكا الجنوبية حيث تقل الملابس إلى أبعد حد فانها هناك باقية على فطرتها تصنع من جلود الحيوان، وتتخذ

من أوراق وفروع الأشجار وتستعمل لمجرد الوقاية من الحشرات. أما المغزول منها فغير معروف عندهم .

وكثير من أشكال الملابس فى معظم العصور روعى فيه جذب انتباه كل جنس إلى أجزاء جسم الجنس الآخر، وهو ما يعبر عنه بالاشارة إلى الهدف المستتر، كما روعى فيها بالتالى تمييز كلا الجنسين عن الآخر، و إن تطورها يتجه دائما الى لفت النظر إلى الأجزاء المقصودة عن طريق إخفائها وذلك أكثر تحريكا للعاطفة من أى مؤثر آخر حتى لتبدو بعض الملابس أقل احتشاما من العرى الكامل نفسه، وأخيرا عندما تفقد الملابس كل تأثير لها يتجه الفكر ثانية الى العرى الجزئى .

وهناك ملاحظة أعنى بذكرها هى : إن أول مرة يرتدى فيها أحد أفراد قبائل العراة الملابس يبدو عليه الارتباك الذى نشاهده على أوربى اضطر الى خلع جميع ملابسه والسير عاريا وسط الناس — وهذه الحقيقة مضافة إلى ما سبق ذكره تبين لنا أن المودة ما هى إلا شعور جديد للظهور بمظهر كثير الجاذبية فوق المعتاد، وأن المودة هى نتيجة للملبس وليست سببا له ، وليس اتقاء تأثير الجو إلا سببا ثانويا فى الملبس بينما السبب الأول هو رغبة المرأة والرجل فى أن يجذب كل منهما الآخر .

ومن يتأمل فى الأطوار التى مر بها الانسان من عهد الفطرة الى الزمن الذى فكر فيه فى الملابس يلاحظ أنه فى الدور الأول منها قد عمد الى ضغط قدمه وتصغيرها كما لا يزال يفعل الصينيون ذلك إلى الآن ، كذلك عمد الى تصغير خصره كما لا يزال يفعل الأوربيون أيضا ، وكان الدافع الأول الى ذلك هو الرغبة فى الظهور بمظهر جذاب مغر ، وفى الدور الثانى بدأ الانسان يفكر فى المزيد من الزينة والزخرف وانتهى به الأمر الى تزيين جسمه بالوشم والرسوم ، منها ماقصد به الزينة فقط ، ومنها ما اتخذه سبيلا لإخفاء ما بجسمه من الجروح والندوب والعيوب، وفى الدور الثالث بدأ الانسان يضيف إلى زينته أدوات خارجية للزينة فوضع الأقراط فى أذنيه والعقود فى رقبته وصف الريش فى شعره وتمنطق بالزينات فى خاصرته.

ومما يجدر ذكره أن الرجل فى هذه العهود الاولى كان أكثر زينة من المرأة وأن الملابس حتى القليل الذى كان موجودا منها لم يكن يظهر إلا فى حفلات الرقص والطعام .

وقد لعب المناخ دورا فى تطور الملابس، ففى المناطق الشديدة البرودة عنى الانسان باخفاء جسمه كله اتقاء للبرد بينما فى المناطق الأخرى اكتفى بلباس بسيط يستر عورته عن العيون، لذا نشأت فى تاريخ الانسان فكرة الاكتفاء بلباس قصير يستر الجسم من البطن الى الركبة ، ويجعلوه محاكيا لشكل الجسم فى العصور التالية بدل الاكتفاء بقطعه قماش يلفون بها هذا الجزء مرة أو مرتين ، بل يقرر الدكتور ث. هـ. ستراتز أن المرأة ارتدت هـذا السروال القصير فى بعض العصور وخاصة السنغاليات وكانت المرأة منهم تقوم بأعمال تزيد على متوسط قوتها كما هو فى بلجيكا، إذ تعمل فى المناجم ، وفى سويسرا إذ تعمل فى استخراج البترول والرعى ، وبذلك بدأت الملابس تجمع مراعاة المناخ والعوامل الجوية إلى جانب التأنق والزينة .

ولقد كانت الملابس فى عهد الأشوريين والبابليين حوالى (٣٠٠٠٠ — ٢٠٠٠٠) قبل الميلاد تتألف من ثوب يغطى أحد المنكبين ويترك الآخر عاريا ويلتف حول الجسم وليس به أى مخيط ويكشف نصف صدره تحت منكبه العارى كما يكشف عن جزء من الساق المقابلة لهذا المنكب من الجهة الأخرى، فكأنه احرام قصير، ويزين رأسه بضفيرة من الليف يعصب بها رأسه وجبهته، وتعمد النساء إلى وضع ضفيرتين أو أكثر ويرتدين ثوبا يغطى كل الجسد بلا أكمام، وكان رجال الدين يحلقون رءوسهم كما يفعل ذلك ملوكهم وعظماؤهم وكانوا يلبسون ما يشبه القبعات وتلك هى شارة العظمة والسلطان عندهم كما أيد بعض الباحثين ذلك بأن الملابس كانت فى أحد أطوارها شارة للقبائل وعظمتها، وكان الأشوريون يزينون بها آلهتهم الحجرية ثم تدرجوا منها إلى إحاطتها بقماش جعلها شديدة الشبه بالعمامة ، أما المحاربون فيرتدون قبعات بدون حافة من النحاس تغطى كل الرأس وكانت قبعات الملوك الحربية تصنع من الذهب وهى أشبه بالخوذ إلا أنها أطول منها وأكثر انسدالا على الوجه بقصد حمايته. وكانت النساء تزيد على الرجال فى تصفيف شعورهن ووضع حزام فى خصورهن ورباطات للرأس ومشابك للشعر ونقل البابليون كثيرا عن الأشوريين وزادوا عليهم تربية اللحى ثم ارتدوا ما يشبه السروال ثم قلد السالدانيون البابليين وارتدوا رداء مماثلا لهم ثم انتقل هذا الرداء أيضا إلى الفارسيين ودلوا شعورهم إلى مناكبهم وأكثروا من العقود، أما المرأة الفارسية فلا يعرف عنها إلا أنها تزينت بالأساور فى معاصمها .

أما الملابس فى عهد مينوين والعصر البرنزى باليونان فإنها كانت متأثرة بالمناخ حيث مرتفعات الجبال فكانوا يرتدون البنطلونات ملتصقة بسيقانهم ويربطون عليها حزاما عريضا جدا، وفوق صدورهم قميصا قصيرا ويرى ذلك بارزا فيما خلفوه من التماثيل والرسوم وكانوا يشدون الأحزمة على خصورهم حتى تبدو أقل حجما واعتنوا بزركشة الملابس وخاصة النساء اللائى كان لباسهن يزيد على الرجال شيئا يشبه العباءة أو الكبود الذى كان مستعملا فى كريت فى ذلك الوقت وهو نوع من المعاطف القصيرة ويلبسون فى أقدامهم الصنادل من الليف أو جلد الماشية ، وكانوا يرسلون شعورهم بطولها الطبيعى ولم يكن يقصها الا رجال الدين بقصد تقصيرها بعض الشىء ، أما النساء فكن يعقصنها . وفى كنوسس ارتدوا على الرأس عمامة تشبه العمامة الاسلامية ومدلاة منها من الخلف قطعة من القماش الى الظهر — وذلك ما يعرف عندنا بالعذبة — كما يفعل ذلك الهنود المسلمون واشتهرت نساء كنوسس بعقص الشعر وأكثرن من المشابك والاطواق .

ورداء المرأة لم يكن جميلا فى القرون الأولى بالنسبة لأردية الرجال على عكس الحالة الآن فسبحان مغير الأحوال. على أن ذلك يخالف ما ذهبت اليه إحدى الباحثات من أن المرأة أغرمت بتجميل نفسها بأنواع المساحيق والاصباغ ومختلف الملابس المزركشة والحلى

حيا فى الوصول الى درجة الرجل الذى ميزته الطبيعة عنهن بمميزات أخرى كاللحية والشارب كما ميزت كل ذكر من أنواع الحيوان، فالديك العرف الجميل، والذكر الطاووس المنظر الحسن، وللأسد شعره الكثير المتناثر حول رأسه، وكذلك معظم أنواع الذكور من الحيوانات .

أما الملابس المصرية القديمة فقد كان لكل طبقة من قدماء المصريين لباس خاص يتناسب مع مراكز أفرادها ، فكانت العامة تلى شعورها ولا يغطون رءوسهم ، بينما الملوك يلبسون قبعة من الجلد بسيطة المظهر كما ظهر فى مقبرة " أبيدوس " ، بينما كان النبلاء يضعون على رءوسهم قبعات من القماش ويحلقون لحاهم ، وكانوا يرتدون ثلاثة أثواب بعضها فوق بعض ، أحدها ثوب كالفستان الذى ترتدية المرأة أو كالجلباب وفوقه صديرية قصيرة كالتى يرتدها الفلاحون فى الحضر، وفوق ذلك عباءة مربوطة من عند الرقبة وتتدلى خلف الظهر وبلا أكمام ، وفى عصر رمسيس كان الرجال يحلقون رءوسهم ويستبقون خصلة من الشعر فى قمة الرأس ، وهذه الطريقة باقية إلى الآن وخصوصا عند بعض الشبان من العرب والفلاحين ، بينما كان رجال الدين يحلقون كل رؤوسهم ، وفى العصر الذى حكم الرومان فيه مصر كانوا يدلون شعرهم على الجانب الأيمن للوجه ويحلقون الجانب الأيسر على النسق المسمى بالمقصوص ، وكانت ثياب العمال مكونة من جلباب قصير وأرى أنه لباس يلائم حالة الفلاح ، واستعمل المصريون الأقراط كالأسيويين ، وقد وجدت مع المومياات التى عثر عليها ، ولبست النساء ملابس أولية زرقاء اللون عادة تشبه الجلباب تتدلى إلى أسفل القدم ، وارتدين قصدنا داخلية أقصر منها قيلا ، وفى عصر العمارنة تقدمت المودة عن أى عهد سبق فارتدوا شعورا مستعارة وأطال الرجال شعورهم وتحول الرداء فأصبح يغطى كل الجسم ، ولبسوا صندلا من الليف فى أقدامهم وقد وجدت مومياء رجل مدفون فى مقبرة امنحتب الثانى بهذا الوصف .

وملابس اليونان والرومان يعرف عنها الكثير مما تركوه من تماثيل وخلفوه من لوحات وصور . واشترك اليونانيون والرومان فى ارتداء ثياب مماثلة فاستخدموا الثياب الفضفاضة المكونة من قميص واسع فى وسطه حزام عند الخصر وفوقه عباءة تغطى كل الظهر حتى الركبة وهذا الرداء كان للرجال ، أما النساء فلم يستخدمن إلا عباءة صغيرة كالحرملة فوق القميص الطويل حتى القدم ، وكان الرجال الممتازون أعضاء السناتو "مجلس الشيوخ الرومانى" يرتدون حول جبهتهم الشرطة زاهية اللون شارة النبل والامتياز ، وقد صنعوا ملابسهم من الصوف وتفننوا فى صبغه بالألوان الزاهية. وفى آخر عهدهم استخدموا القراء فى صنع قبعات بسيطة أو معاطف قصيرة ولبست النساء على رءوسهن ما يشبه العمامة منها او من القماش وعادت فأصبحت مودة الآن ، وفى عصر الامبراطور تراجان الرومانى بدأوا بارتداء بنطلونات قصيرة

من الخصر إلى الركبة وقمصان وعباءات واتخذوا الأحذية من الجلد ولم يكن لها كعب وبقى لها الرباط الطويل .

وفى القرون الوسطى بدأت تتعدد الأزياء فكان الفلاح الفرنسى يرتدى بنطلونا طويلا ملتصقا بجسمه وجاكتة طويلة إلى الركبة مفتوحة من الصدر بها زر واحد عند الرقبة وتتسع فتحتها كلما اتجهت إلى الوسط ، ولبس الجنود نوعا من المعاطف متصلا به غطاء للرأس ويلبس المدنيون فوق البنطلون الضيق "تواكار" عباءة مقفلة إلى ثلاثة أرباع طولها كمعاطف السيدات فى الوقت الحالى ، وكان الرجل منهم يحمل فى يده حقيبة من الجلد تحاكى حقائب السيدات فى هذا العصر يضع فيها حاجياته إذ لم تكن الجيوب عرفت بعد .

وأما السادة فى عصر كارلنجيان فكانوا يرتدون قبعات مقواة بلا حافة تشبه الطربوش بدون زر ، مختلفة الألوان ويشبه لباسهم لباس "الترابادور" وهو المغنى المتجول فى تلك العصور واتجهت النساء إلى ارتداء الملابس الضيقة جدا عند الصدر والخصر والى ينتفخ عند الأرداف وتتسع جدا عند القدمين و إلى تجعيد شعورهن وجعلها ضفائر صغيرة حول الرأس .

وفى القرن الثالث عشر تفشت الثياب المزركشة والعباءة الطويلة والأحزمة وظهرت مودة الالتحاء ثانية للنبلاء وفى القرن الرابع عشر وجدت الثياب الضيقة من الرجال إقبالا شديدا وهو النوع المسمى "ديموازو" . وفى القرن السادس عشر شاع البنطلون والقميص وفوقهما عباءة ثقيلة نوعا مطرزة ومزركشة وارتدوا أحذية واستبدلوا بالأربطة مشبكا وارتدوا قبعات مزينة بالريش الكبير وكان شكلها يشبه شكل قبعة نابليون إلا إنها مزينة بالريش ، أما المحاربون فكانوا يرتدون أطقما من المعدن تغطى كل الجسم تقريبا كالتى تشاهد فى بعض الروايات والقصص السينمائية ، ومن هؤلاء تألفت جيوش الصليبيين ثم تحول ذلك إلى الاكتفاء بالزرد فوق الصدر وحماية باقى الجسم بالدرع الكبير .

وظلت ملابس النساء تزداد ضيقا وكشفا للجسم وزركشة فى اللون وزهوا فى الشكل وبدأ عرى الظهر والجزء الأعلى للصدر يظهر فى ملابس المراقص للنساء فى أواخر القرون الوسطى . وفى القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر تفشت مودة الدانتلا حتى صنع منها ثياب كاملة للنساء أحيانا ثم ظهرت الوردة من القماش زينت بها القبعات وأطراف الأكمام والبنطلون وتحولت ملابس الرجال إلى قميص وبنطلون ضيق قصير وجورب طويل وحذاء بمشبك وجاكتة مفتوحة وحول العنق ربطة كالكوفية وقبعة نابوليونية ذات ريش زاه ودانتلا ثم تحولت ربطة العنق إلى شريط عريض يشبه البابيون وشاعت عندئذ مودة الأزرار فأكثروا منها وأكثرت النساء من العقود والأقراط اللؤلؤية الطويلة والخواتم الكبيرة وارتدى الفلاحون ما يشبه بنطلون الجولف وكان ذلك مناسبا لعمل الحقل وعلى الصدر قميص يشبه "البول أوفر" يصل إلى الرقبة بلا فتحة وعلى الرأس كاسكت عادية وفى القدم حذاء وشراب طويل يصل إلى البنطلون .

أما اللباس الحربى فقد تغير فى أواخر القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر إذ اكتشف البارود ولم يعد للأطقم الحديدية حمايتها السابقة فنبس الجند الأشرطة الزاهية والبنطلون الطويل والجاكتة الطويلة المفتوحة وأحزمة من الكتف إلى الوسط وفى الحصر يخلد فرنسا إبان الثورة الفرنسية وارتدوا الأحذية وابتكروا لها الكعب وعنوا بجعلها لماعة المنظر .

أما فى الشرق الأقصى فالصين واليابان وكوريا يلبسون ملابس قريبة الشبه بعضها ببعض أهمها جلباب من الحرير المزركش الزاهى الألوان وله اكمام واسعة ويلفون حول البطن حزاما من القماش العريض فى عدة طيات .

ومن ابتداء القرن العشرين تلا ان كثر تنوع الملابس وأصبح فى كل وقت لباس مختلف ولكل عمل كذلك ، وكان لما تجود به قرائح الفنانين وما تعرضه المعارض واستوديوهات السينما ومحال الخياطة الكبرى الأثر البارز فى انتشار الموضة، وقد تعددت طرق النساء فى تصفيف شعرهن وانتشرت المجوهرات الرائقة والمقلدة وتنوعت النماذج . ومما يلاحظ فى ملابس الرجال أن الجاكتة والبنطلون قد زادا فى الطول والاتساع وزاد عدد الأزرار فيهما ووجدت الجيوب الخارجية بجيب المنديل والجيب الداخلى، وظهر رباط الرقبة الطويل إلى جانب البابيون كما ظهرت الجاكتة القصيرة فى حفلات الطعام وتنوعت ملابس الألعاب الرياضية إلى حد كبير ولبست السيدات يرتدين الجاكتات كالرجال .

مما تقدم ذكره يتضح أن الملابس وإن تطورت فى الامم التى تحدثنا عنها من جيل الى جيل، ومن عصر الى عصر كانت موحدة فى الامة الواحدة لم تضرب الفوضى فيها أطنابها كما هو حاصل فى بلادنا الآن من تعدد الازياء والملابس . تلك المشكلة من المشاكل المعقدة التى لم توجد فى بلد من البلاد، ورأيى الخاص أن التشريع لا ينفع علاجا لها لأن تطورها كان للأسباب التى سردناها ولا دخل للتشريع فيها فعسى أن توفق وزارة الشئون الاجتماعية وهى غنية برجالها العلماء المفكرين إلى وضع حد لها ووصف علاج حاسم ان شاء الله

محمود حسيب